على هامش (الحادث)

كلمة إلى الجنرال ديجول !

للحقيقة وللتاريخ لا للتشفي والهجاء . . .

للأستاذ علي الطنطاوي

رأيت في سينما ديانا بالقاهرة منذ شهور جريدة الأخبار الفرنسية تعرض صوراً من انهيار ألمانيا ، فترى المهاجرين من النساء والعجائز هائمين مشردين ؛ ثم تعرض منظراً مثله كان في فرنسا يوم انهزمت فرنسا ، ويعقب المذيع فيقول بصوت خافت رهيب : « إن في الكون عدلا ! » وترى المدائن المخربة ، والدمار البادي ، والدثار الشامل ، ثم تعرض مثل ذلك مما كان في فرنسا ويعقب المذيع فيقول : « إن في الكون عدلا » !

نعم ، يا جنرال ، إن في الكون عدلا ! ولكن قومكم ما استوفوا بعد قسطهم من عدل الله ، وآية ذلك أنكم أصبتم فبكى لكم أعداؤكم ، ورحمكم خصومكم ، وكنتم عند الناس

وحيويته ومجده ورسالته لا نفتأ نذكره بمجده العظيم الذي يعشقه ويصبو إليه ، ونذكره بقضايا الوطن العربي الواسع الذي يزيد اتساعة قوة وأملا ، وندعوه المرة بعد المرة لإنقاذ إخواننا المجاهدين في كل قطر ، واثقين من قدرته على استعادة مجده وأداء رسالته بفضل حيويته وتضامنه مع الشعوب العربية الأخوى ، موقنين أننا إنما نعبر عن روحه الوثابة التي أنشأت امبراطورية عربية عظيمة في بضعة أعوام في عهد عاهله العظيم « محمد علي » ، عالمين أن « الاستقلال » هو أول الأهداف لا نهايتها ، وبدء الجهاد لا غايته التي تتسع لكل ما يصبو إليه العرب والمسلمون من عزة وسيادة ووحدة ، وما ينتظره العالم منهم من رسالة إنسانية سامية خالدة

تلك هي « أهدافنا القومية » ، فمن كان يقنع بما دونها فليس من سلالة الفراعنة ، ولا من روح العرب ، وليس له إلا أن يفسح الطريق لركب المجاهدين الطامحين العاملين لعزة العروبة ورسالتها .

ترفيق محمد الشاوي
مدرس بكلية الحقوق — بجامعة فؤاد

ضحية القوة الماثية ، وشهداء العدوان المجرم ، وكنت تثير الدنيا على الألمان أن حاربوا قومك ، وقومك هم أعلنوا الحرب ، وهم تقدموا إليها ، وهم (زعموا) بنوها ، قد غذوا بلبانها ، وربوا في ميدانها ؛ فلما نبت ريشك ، ورُدّ عنك عدوك ، وأغضى عنك الدهر إغضاءة ، نسيت كل ما كنت فيه ، وما كنت تقوله وتخطب به ، وأقبلت تجرب سلاحك فينا ، فأخذتنا على ساعة غرة بحرب ما آذنتنا بها ، ولا أعلنتها لنا ، فسخرت لقتالنا مدافعك وطياراتك ، ويا ليته كان سلاحك يا أيها المحارب الظافر ، ولكنه سلاح أعطيته عارية لتحارب به عدو صاحبه وعدوك ، فحاربت به قوماً آمنين ! حاربت يا أيها البطل النساء في الخدور ، والأطفال في المدارس ، والمرضى في المستشفيات ... وما هابك النساء ولا الأطفال ولا المرضى ، ولا رفعوا مثل العلم الأبيض ، الذي رفعه قومك حين كان لهم سلاح ، وكان لهم خط ماجينو ، لأن لهم من إيمانهم حصناً لا تهدمه قنابلك ، ولا تحرقه نارك !

وهذا الجيش (يا جنرال) الذي عقدت له اللواء ، ورفعت فوقه العلم ، وائتمنته على شرف فرنسا وتاريخها ، قد أهوى باللواء ، وطوّح بالعلم ، وعبث بالأمانة ، حين سُلّط على المخازن ، فكسر أقفالها ، وفتح أبوابها ، وأخذ ما فيها ، وذلك فعل اللصوص لا الجنود !

ثم عاد فأوقد فيها النار ، فأحالها إلى جهنم الحمراء ، ليخفي باللهب سرقته ، وذلك صنع المجرمين لا القاتلين !

ثم وقف يتربص ، فكلما أقبل من يطفئ النار ، ويتقذ الأطفال رماه فأصماه ، وذلك عمل القتلة السفاكين ، لا الأبطال المحاربين !

جيشك هاجم المستشفى الوطني ، وسلط ناره من أفواه رشاشاته ومدافعه على الجرحى والمرضى ست ساعات متواصلات متتاليات ، ولم يقدر بعد ذلك إلا على أربع ممرضات شواب أخذهن «سايا»!

جيشك يا رجل الديمقراطية ، يا سليل من أعلنوا حقوق الإنسان ، هاجم البرلمان وفعل به الأفاعيل ، ومثل بشرطته فبقر بطونها ، وسمل عيونها ، وقطع أطرافها ، وها هو ذا البرلمان تركناه ليشهد عليكم أبداً ، فتمال تر الدماء على جدرانه الصدعة ، وأبوابه المخلعة ، ولقد وجدوا صندوق البرلمان وفيه المال ... وجدوه بعد ذلك في دار القيادة الفرنسية ، وهم طبعاً لم يسرقوه ، ولكن أخذوه ليحفظوه !

جيشك يرمي قنابل الطيارات على السجون ، حيث لا يملك

من فيها فراراً ، فجعل السجن لمن فيه قبراً !

المستشق العسكري يا جنرال جعله جيشك قلعة فيها مدافع الهاون ، ومنه أحرق سوق صاروجا هذا الحريق الذي أكل ثلاثاً وتسعين داراً ... ومدرسة الفرنسيسكان كان فيها الرشاشات ، تطلقها بأيديها الطاهرات ، الراهبات المتبتلات ، ذوات الرحمة المسالمات !

نسخة التوراة التي سرقت من سنوات ، وهي أقدم نسخة في العالم ، وجرت لها تلك المحاكمة المشهورة ، وقضى على طائفة من الأطباء بأشد العقاب ، وجدت في دار المستشار الفرنسي لما كبست بعد الحادث داره ، ويقدر ثمنها بنصف مليون فرنك !

القاضي الفرنسي الذي جئتم به إلى المحكمة المختلطة ، لأن قضاتنا في دعواكم لا يُطمأن إلى علمهم ونزاهتهم ، السيو سيرو ، وجد في داره رشاش كان يقتل به الناس في تلك الأيام السود ، وهو الذي جيء به ليقضي على القتلة والمجرمين !

إن بطريرك موسكو وكل الروسيا ، كان في فندق الشرق (أوريان بالاس) يوم الحادث ، يوم عصفت هذه العاصفة في رأس قائدك أوليفاروجه ، فنسي كل ما يعتز به البشر من فضائلهم — قلبت في الملجأ المظلم تحت الأرض ليلة كاملة ، قال لما انقضت : « لقد كنت في ستالينغراد يوم ضربها الألمان ، فما رأيت أكثر مما رأيت الليلة » !

ولما قدمت دمشق زوجة رئيس الجامعة الأميركية في بيروت السيدة دودج ، ورأت آثار العدوان ، قالت : لقد قتل ابني الوحيد في فرنسا ، فكان يصبّر النفس عنه أنه مات في سبيل الحق والإنسانية ، أما الآن ، فواطول حزني وكمدي ، لقد أيقنت أن ابني مات في سبيل (لا شيء) !

* * *

يا جنرال ! لما ذهبت أزور القلعة بعد الحادث بأيام لم أستطع أن أدنو منها من رائحة الموت ، إذ تفوح من آلاف الجثث ، جثث الأبرياء التي كانت بالأمس رجالا كراماً ، كانوا ملء الدنيا حياة ونشاطاً ، وكانوا ذخر عائلاتهم وبلادهم ، فصاروا ... أكواماً من اللحم العفن الذي يؤذي العين والأنف !

لم ينج من شر جيشك الأحياء ولا الأموات . ولقد أبصرت في (الدحداح) قبوراً قد نبشتها القنابل ، وقذفت رممها ، أفإن عجزت عن حرب أعدائك الأقوياء ، جئت تحارب موتانا ؟

لقد كان ذلك كله ، وكان أكثر منه ، أفهذا من العدل الذي تهتف به ؟ لا يا جنرال ، إن كلمة « العدل » أكرم من أن تمر على لسان مر منه ذلك الأمر الهمجي بضرب دمشق أقدم مدينة عامرة على ظهر الأرض بلا استثناء ، وأكاد أقول أجلها . إن الشفاه التي تعرف كلمة « العدوان » ، لا يمكن أن تألفها كلمة « الحق والعدل » !

* * *

ولكن « في الكون عدلا » ! نحن نقولها الآن ! وإن من عدل الله أن جعل صبرنا نعمة علينا ، وعدوانكم وبالا عليكم !

لقد انتهت الرواية ، وأسدل الستار ، فتعال ننظر ما ذا ربحنا وما ذا ربحتم ؟ لقد خسرنا منازل من أحسن منازلنا ، ورجالا من أكرم رجالنا ، وملايين من حرّ أموالنا ، ولكنا ربحنا الخلاص منكم ، والاستقلال عنكم ، وسنبني الدور ، ونلد الرجال ، ونعوّض المال ، فما ذا ربحتم أنتم ؟ ما ذا ؟ يا من كشفت للناس عن حقيقتك ، وأنك ما خلقت لتسوس الأمم ، ولا لتحكم الشعوب ، ربحت بغضاء لا تمحى . لقد أسأت إلى التاريخ الفرنسي والثورة الفرنسية والأدب الفرنسي ، ولطخت بالوحل أسماء كانت فينا لامعة نظيفة ، وكان لها في النفوس مكان ، وسيتوارث العرب كلهم والمسلمون هذه البغضاء بطناً بعد بطن ، وستزيد وتعظم ، وتغلو تراثاً مقدساً ، لا يشذ عنه إلا هؤلاء النفر من الأدباء الذين باعوا دينهم وإخوانهم بذكريات غرام لهم هناك ... وهؤلاء ليسوا منا !

لقد أثمرت هذه البغضاء بأكوامها ، فلم يبق في سورية كلها لوحة عليها حرف فرنسي يقرأ في طريق ، ولا كتاب فرنسي يدرس في مدرسة ، ولقد كان مهرجاناً قومياً يوم أحرقت فيه الكتب الفرنسية في مدن الشام !

وبعد يا جنرال ، إن في الوجود شيئاً أعظم من الدبابات والطيارات والقنابل الذرية ، هو حب الموت !

فالذي لا يخاف الموت لا تخيفه آلاته مهما جلّت وعظمت ، فمن يطلب الموت فهو أكبر من الموت ، لأنه أكبر من الحياة ، ونحن قوم علمنا نبينا محمد ألا نخاف الموت في سبيل الحق ، فلن يخيفنا شيء في الدنيا !

(دمشق)

علي الطنطاوي

القاضي